



حارس أعسفي من الخدمة بعد ١٥٠٠ عام

محمود عصام الميداني

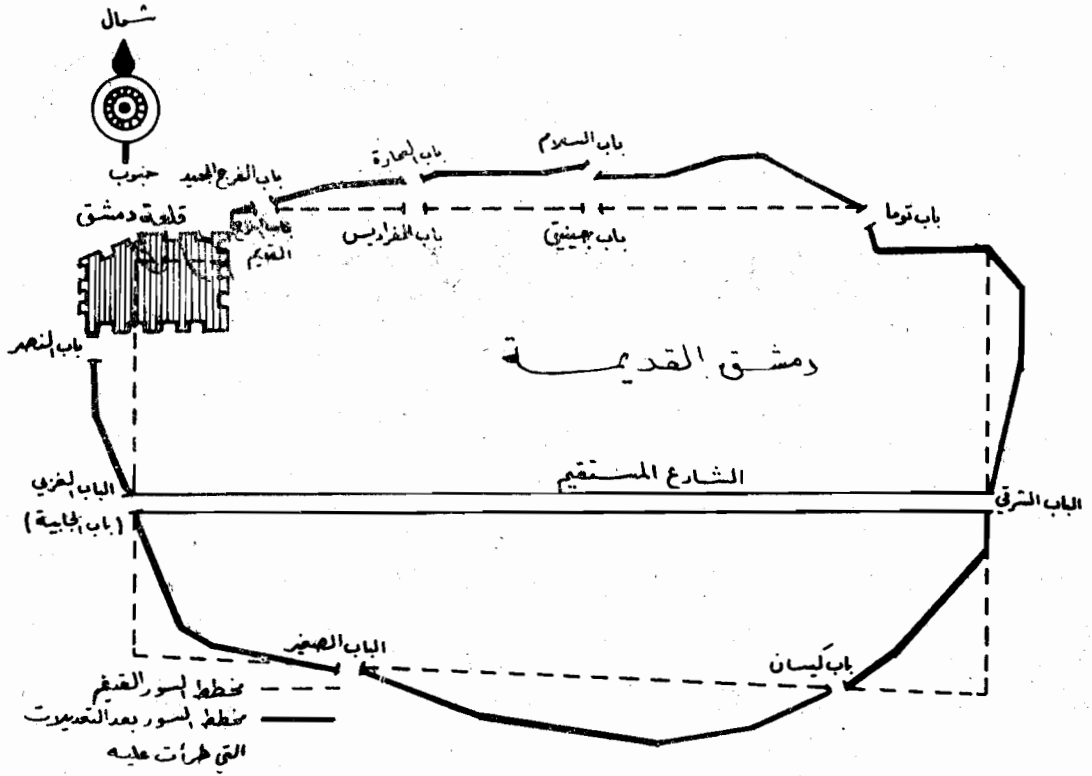
دمشق الفيحاء ، المدينة التي تحكي قديم الانسان وعراقه التاريخ ، والتي حباها الله موقعا طيبا ، فقيل إنها « إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد » ، واذا كانت توصف بأنها مدينة خمسة آلاف العام التي لم تنقطع فيها الحياة ، فان لسورها فضلا كبيرا في الحفاظ عليها عبر جزء غير يسير من تاريخها الطويل .

يذكر ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان ، أن أول حائط بني بعد الطوفان هو حائط دمشق وحائط حران ، ولعل هذه المبالغة بقدم تاريخ حائط دمشق أو سورها قد نجمت عن ارتباطه بتاريخ مدينة دمشق ، التي يرد ذكرها في كشوف إيبلا منذ القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، كما يتردد ذكرها أيضاً في أخبار تحوتمس الثالث منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد .

وتكاد تجمع المصادر التاريخية على أن دمشق من المواطن الأولى للآراميين ، والآراميون شعب عربي قديم إلى بلاد الشام من شبه الجزيرة العربية منذ أوائل الألف الثالث قبل الميلاد ، واستقر في المنطقة الواقعة بين جبل البشري وتدمر ، ومن ثم انطلق إلى المناطق الخصيبة المجاورة ، فكانت دمشق أحد منازلها .

وليس بالأمر المستغرب أن تصبح دمشق مركزاً هاماً للآراميين ، نظراً لما تتمتع به من موقع هام يغذيه شريان مائي هو نهري بردى ، ويدهلنا على ذلك اسمها الذي حملته وهو (دار ميسق) والتي تعني الأرض أو الدار المسقية ، وهذا ما يرسيه ويؤكداه الواقع الجغرافي للمدينة .

والمعتقد أنها نشأت مدينة صغيرة وسط غوطة واسعة على الضفة اليمنى لنهر بردى ، ويؤكد الآثاريون أن المدينة الآرامية كانت تشغل الجانب الغربي من مدينة دمشق القديمة



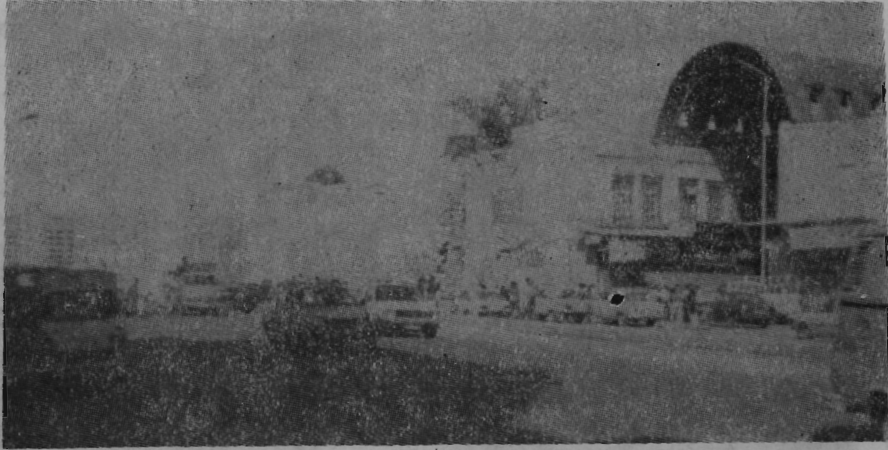
في منطقة تعرف اليوم باسم تل السمّانة ، يلاحظ فيها ارتفاع ظاهر يتراوح بين ٦-٥ أمتار عن الأحياء المجاورة ، ولا يستبعد الأثاريون أن تكون بقايا قصور ملوكها الآراميين مدفونة تحت الحي القديم الأهل بالسكان اليوم .

وباحتكاك المدينة مع الشعوب المجاورة، بدأت تتجمع فيها الأنشطة المنطقتين الوسطى والجنوبية من سورية ولتصبح من المراكز التجارية الهامة آنذاك .

□ نشأة السور :

من المعروف أنه في عام ٣٣٣ ق م ، دخلت المدينة تحت حكم اليونان أيام الاسكندر المقدوني لتصبح فيما بعد من المدن السلوقية الهامة في المملكة السورية وعند البطالمة خلفاء الاسكندر في مصر ، وأصبحت عاصمة لانطيوخوس السلوقي عام ١١١ ق م .

وباستيلاء القائد الروماني بومبيوس على دمشق عام ٦٤ ق م ، دخلت دمشق تحت حكم الرومان ، وصارت تؤلف صلة الوصل بين الشرق والغرب فازدهرت تجارتها وأينعت فيها الحياة العمرانية حتى غدت إحدى الحواضر الهامة ، مما دعا الامبراطور سيبتيموس سيفيروس الذي حكم بين عامي ١٩٣-٢١١ م وأصله من طرابلس بليييا - ومن بعده ابنه

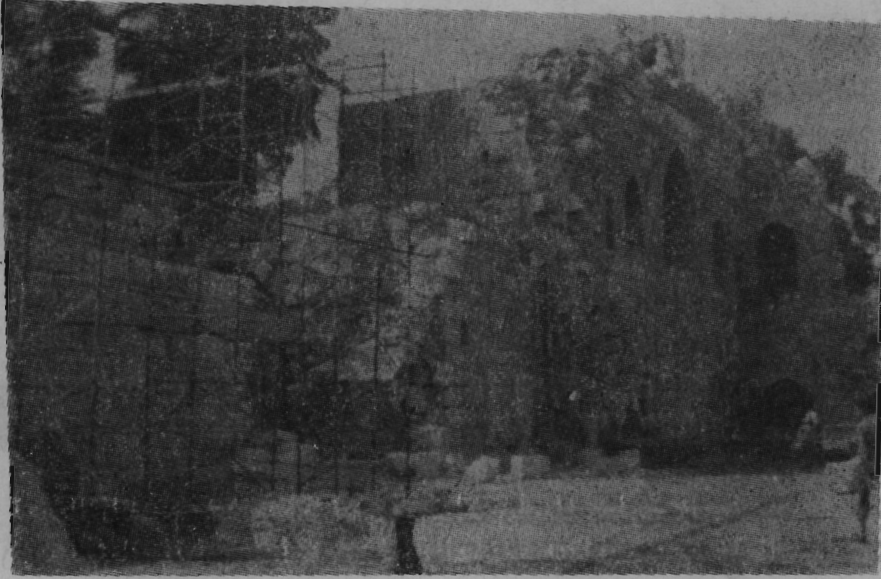


■ مدخل سوق الحميدية حيث كان باب النصر وتظهر القلعة في يسار الصورة ■

كاراكالاً ٢١١-٢١٧ م من زوجته جوليا دومنه Julia Domna وهي من مدينة حمص سورية ، الى بناء سور حجري حول مدينة دمشق يتناسب مع أهميتها حين أصبحت عاصمة المنطقة الجنوبية من سورية ، وعُدت إحدى المدن العشر المسماة « ديكابوليس Decapolis » وبدأت بذلك حياة السور ، ويغلب الرأي على الباحثين بأن السور بُني بشكل مستطيل طوله ١٥٠٠م وعرضه ٧٥٠ م وارتفاعه حوالي ١٠ م ، يُنقذُ الى داخله من خلال ثلاثة أبواب في الشمال هي : باب توما وباب جينيق وباب الفراديس ، ومن بابين جانبيين هما : الباب الشرقي ، والباب الغربي الذي دُعي فيما بعد بباب الجابية ، ومن بابين جنوبيين هما : باب كيسان (تذكر بعض المصادر أنه اسم من أصلح الباب زمن معاوية) والباب الصغير ، وفي دراسات حول السور رفض بعض الباحثين الشكل المستطيل وبأنه بني بشكل بيضوي قريب من مخططة الحالي باستثناء التعديل الذي حصل في شماله .

هذا ولا يعلم مصدر الحجارة التي بني منها السور ، وإن كنا نَحْمَنُ أنها قد قطعت من الصخور الناشزة في منطقة الربوة ، وحُملت على مياه نهر بردى يوم كان غزيراً ، وقبل أن تُشَقَّ منه الفروع لري غوطة دمشق .

ومن الجدير بالذكر أن تخطيط المدينة وبناء السور ليس من أعمال الرومان فحسب ، إذ إن التاريخ يروي كيف كُرِّمت مدينة دمشق المهندس الدمشقي أبوللو دوروس Apollo Dorus في القرن الثاني الميلادي الذي بنى الجسر الحجري الشهير على نهر الدانوب ، وأقام ساحة تراجان Trajan في روما ، وأنشأ العديد من الحمامات والأبنية والأقواس ، زِيَّنَ بها المنشآت أيام الامبراطورية الرومانية ، وكان من أثر هذا التمازج الحضاري بين الشرق والغرب ظهور الحضارة الهلنستية التي ظهرت فيها الشخصية المتميزة لحضارة الشرق القديم . مما دفع الكاتب الروماني جوفينال المتوفى سنة ١٤٠م



■ جدار القلعة الشمالي حيث يجري ترميمه من قبل مديرية الآثار العامة ■

الى القول : (منذ زمن بعيد يصب نهر العاصي ماءه في نهر التيبر جالباً معه لفته الغريبة وعاداته وعوده وقيثارته) .

□ السور في العصر العربي الاسلامي :

ما ان امتدت الموجة العربية الاسلامية في المحيط العربي لاعادة تحرير البلاد ونشر الدين الجديد ، حتى ظهرت مقاومة دولة الروم في بلاد الشام يقودها جنود الاحتلال البيزنطيون من خلف أسوار مدينة دمشق . وخلال حصار المدينة عام ١٣ هـ / ٦٣٤ م ، كان القائد أبو عبيدة عند باب الجابية ، وخالد بن الوليد عند الباب الشرقي ، ويزيد بن أبي سفيان أمام الباب الصغير ، وعمرو بن العاص أمام باب الفرج ، وكان ضرار بن الأزور في ثلثة من الفرسان يطوف على الأبواب يجري الاتصال بين القواد العظام ، يذكي الحماسة في النفوس ويحث الجند على القتال .

حاصر الجيش العربي دمشق نحواً من ٧٠ يوماً حصاراً شديداً بالزحف والترامي والمجانيق ، وكان القائد العظيم خالد بن الوليد - كما يذكر الطبري - لا يخفى عليه شيء من أمر الأعداء واتخذ كهيئة السلالم وأوهاقاً (الوهق حبل له أنشودة) يرميها الجنود على الأسوار ، ولما ثبت وهقان منهما تسلقهما القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي ، ويؤكد الطبري أن ذلك كان في أحسن مكان يحيط بدمشق وأكثره ماءً وأشده مدخلاً ، حتى اذا استويا على السور كبر الجند ومالوا الى الحبال فوثبوا فيها وفتحوا الأبواب ، ودخل الجيش من الباب الشرقي عنوة ، عند ذلك أفلت الأمر من أيدي المدافعين وعرضوا الصلح على أبي عبيدة وعملت المدينة كأنها فتحت صلحاً بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب .

□ السور في العهدين الأموي والعباسي :

وما إن استقرت الدولة الأموية في بلاد الشام حتى تبوأ مدينة دمشق مكانها اللائق كعاصمة للأمويين ، ولا يتردد ذكر السور كثيراً في تاريخ الأمويين ، إذ أنها كانت المدينة المنيعه ومركز الإشعاع الذي انطلقت منه الشواطي والصوائف تثبتت دعائم العروبة والإسلام في أقاصي بلاد الشام وبتجاوزها منطلقه الى بلاد ما وراء النهر شرقاً وإلى الأندلس وأواسط فرنسا غرباً وفي هذا يقول أمير الشعراء :

لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغداد

ويحدثنا مؤرخو هذه الفترة عن أحواض المياه والنوافير والسقايات (السبيل) التي كانت مثبتة عند أبواب السور وفي ساحات المدينة وشوارعها ، وكانت تبني القصور خارج السور ، كالقصر الذي يُنسب إلى الحجاج بن عبد الملك (في دمشق حي يعرف بقصر الحجاج) ، وقصر عاتكة مكان الحي المعروف بقبر عاتكة وهما جنوب غرب المدينة القديمة ، وكذلك بدأت تظهر الميادين والساحات خارج السور لحفلات الفروسية والمقابر خارج المدينة وعند أبواب السور .

وبانتقال الخلافة إلى العباسيين ، انتقلت العاصمة إلى بغداد وهُدم السور منذ عام ١٢٢ هـ / ٧٥٠ م ، وفقد أهميته وتحولت المدينة إلى أحياء مغلقة تعيش حياتها الخاصة ، وأقيمت البوابات بين الأحياء ، وفي كل حي كان يقام المسجد والحمام والسوق وكانها قرى مستقلة ، إلا أنها كانت ترتبط بمركز المدينة وهو جامعها الكبير (المسجد الأموي) .

ثم عادت للسور أهميته وحظيت المدينة بالاهتمام والرعاية وبخاصة أيام نور الدين زنكي ٥٤٩-٥٧٠ هـ / ١١٥٤-١١٧٤ م ، وكان من الأعمال الهامة التي قام بها إعادة السور وتدعيمه بالأبراج القوية ، وإقامة الأسواق والمساجد إلى جانب الأبواب . ولم يكن عدد الأبواب ثابتاً خلال فترات التاريخ ، فما إن يهدم السور حتى يعاد تجديده ، فتُفتح أبواب وتغلق أخرى ، وعندما امتدت المدينة خارج السور في جزئها الشمالي ، انتقل السور ليسائر نهر بردى بعد أن كان يسائر أحد فروعه ، وأطلق على الحي الجديد اسم (بين السورين) وما يزال هذا الحي محتفظاً باسمه ومظهره القديمين .

ولقد كان تدعيم السور وتجديده ضمن خطة للوقوف في وجه الحملات الصليبية والعامل الطبيعي هو تعرض سورية لسلسلة من الهزات الأرضية كما يذكر ابن القلانسي في كتابه تاريخ دمشق ، وبأنه خلال العامين ٥٥١ و ٥٥٢ هـ / ١١٥٦ و ١١٥٧ م ، قد أصابت الزلازل مدن حلب وشيزر ودمشق تهدمت خلالها الدور في حلب وانهار حصن شيزر ، وهو يذكر في تاريخه ليوم ٢٥ ذي القعدة سنة ٥٥٢ هـ أن دمشق ضربتها ست هزات أرضية في يوم واحد ، ويبدو أن هذه العوامل مجتمعة دعت نور الدين إلى تجديد

السور وبناء الأبراج وفتح البوابات ، وزود كل باب بسويقة (باشورة) صغيرة وأقام المساجد على الأبواب ، واليستمز الاهتمام بالسور زمن صلاح الدين الأيوبي ومن خلفه من الأيوبيين .

ونظراً لأن المدينة كانت في حالة حرب مستمرة زمن الحروب الصليبية فقد بنيت قلعة دمشق على أنقاض قلعة قديمة كان قد بناها الأمير السلجوقي تتش عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م ، في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة وأعيد إصلاحها عام ١٢٠٦ م ، وما تزال القلعة قائمة إلى اليوم شامخة بقامتها المهيبة تطل من عل بجدرانها وأبراجها تروي قصة صمودها في وجه الطامعين ، وقد عملت مديرية الآثار العامة على كشف جدرانها بهدم البيوت والأسواق التي التصقت بها على مر الزمن لاظهار هذا الأثر بالشكل الذي يتناسب مع أهميته .

ويكبو السور إثر الاجتياح المغولي عامي ١٢٦٠ و ١٤٠٠ م خلال الهجمة الوحشية على بلاد الشام والرافدين ، ولكنه يعود للظهور مرة أخرى أيام العثمانيين وليبدأ السكان ببناء منازلهم خارج السور مع توسع المدينة وازدياد عدد سكانها ، واعتلتهم مساكنهم في كثير من أجزائه ، وتكرت القلعة بعد أن بقيت فترة من الزمن سكناً للوالي العثماني وبقيت ملجأ للسكان عندما تنهار مقاومة السور أمام الولاة المتصارعين ، وظهرت أحياء جديدة خارج السور كحي القنويات وسويقة صاروجة ، وكانت الأحياء تمتد باستحياء وبحذر ورهبة شديدين خلال فترات الأمن ، ليمود أهلها للتجاء إلى حنايا سورهم أيام الأزمات والمحن .

وفي أيام والي دمشق محمد العظم نَظَّم القسم الغربي من سوق الحميدية . وأقيمت المشيخة العثمانية مكان القصر العدلي اليوم (غرب مدخل سوق الحميدية حالياً) خارج حدود السور ، وكان ذلك عام ١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ م ، مما دفعنا إلى اعتبار هذا التاريخ هو نهاية خدمة السور لمدينة دمشق رسمياً .

هذا ولم يبق من هذا السور الا الجزء الذي بين باب السلامة وباب توما ، وجزء بين الباب الشرقي وباب توما ، والجزء الذي بين الباب الشرقي والزاوية الجنوبية الشرقية من السور وجزء آخر عند الباب الصغير ، وكذلك جزء كشف عنه حديثاً جنوب باب النصر في القسم الغربي من السور ، وما تزال فتحات الأبواب قائمة إلى اليوم ومنها ما يزال يحتفظ بالأبواب الحديدية الضخمة ، عدا باب النصر الذي هُدم وباب جينيق الذي لا يعرف مكانه بالضبط .

أما اليوم فتقف بقايا السور والقلعة مع الأبواب المتبقية تُذكر بتاريخ دمشق وأحداثها ، وفي هذه البقايا حجارة منذ أيام الرومان وأخرى زمن نور الدين وثالثة مملوكية وفوقها حجارة عثمانية ، يمثل كل صف منها عهداً أو حضارة عاصرت حضارة

دمشق التي تمثلت تلك الحضارات وتفاعلت معها وتراكت فيها معطياتها ، وكانت المدينة تصل بين هذه الأحجار بملاط طابعه عربي اسلامي حفظ لها أصالتها وأبقى لها طابعها العربي الأصيل ، الا أنها قد تجددت اليوم وتحولت الى مدينة تضارع مدن الحداثة في العالم ، محتفظة في الوقت نفسه برونق الأوابد الأثرية، ومنها سورها العظيم، الذي دافع عنها لأكثر من خمسة عشر قرناً من الزمن وكان لها الحارس الأمين .

محمود عصام الميداني

★ ★ ★

□ مراجع البحث :

- ١ - تاريخ الطبري ابن جرير الطبري
- ٢ - خطط الشام محمد كرد علي
- ٣ - تاريخ دمشق ابن القلانسي
- ٤ - مجلة الحوليات الأثرية لعام ١٩٧٩ د. عبدالقادر ربحاوي
- ٥ - موجز تاريخ سورية القديم د. حرب فرزات
- ٦ - آثارنا د. أبو الفرج العث
- ٧ - دمشق وأهميتها العمرانية بشير زهدي
- ٨ - نزوات أثرية د. سليم عادل عبدالحق
- ٩ - الآثار الإسلامية في مدينة دمشق كارل ولتسينجر
- ١٠ - قلعة دمشق د. عبدالقادر ربحاوي
- ١١ - خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى فيليب حتي

★ ★ ★